المشرق

شفاعة القديسين لحماية المؤمنين

نظر كتابي اثري للاب لويس شيخو اليسوعي

كتبنا قبل خمس سنوات (في المشرق ١٨ [١٩٢٠]: ٩٢٧—٩٣٤) فصلاً واسعاً في عيد جميع القديسين الواقع في غرة هذا الشهر وذكرنا هناك تاريخهُ وطقسياتهِ في الكنيسة وفوائدهُ الاجتماعيَّة. وقد طلب الينا احد كهنة الروم الكاثوليك ان ننشر مقالاً خاصاً بشفاعة القديسين تفنيداً لما يبذره البروتستانت في الشوير وجهاتها من المزاعم الباطلة في هذا المعتقد الكاثوليكي

فتلبيةً لذلك الملتمس نخصص هذه النبذة لاثبات تلك الحقيقة الراهنة وبيان صحتها باقطع البراهين النقليَّة والتاريخيَّة والاثريَّة بحيث لا يبقى ريب في عقل من يطلب الحق ولا يكابرهُ

تمهيد

انَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة في اقدم دساتير ايمانها الراقية الى عهد الرسل قد صرَّحت بمعتقدها لشفاعة القديسين. فانَّ في دستور الايمان المنسوب الى الرُّسل ذكر جهاراً اعتقاد المؤمنين «لشركة القديسين». ومن البديهي انَّ هذه شركة القديسين لا تقوم إلَّا بالواصلات الجارية بين المؤمنين الاحياء واوليائه الله في السماء. وتلك المواصلات هي اكرام ابناء الكنيسة لاخوتهم القديسين الظافرين بالسعادة الابدية والاستشفاع بهم والحظوة بتلك الشفاعة من لدنهم عند الله

امَّا اساس هذا المعتقد فمبنيٌّ على انشاء السيد المسيح لكنيسته الواحدة الشاملة

جماعة المؤمنين سواء كانوا على الارض يسعون الى خلاص نفوسهم وهي الكنيسة المجاهدة ام فازوا باكليل المجد في دار البقاء وهي الكنيسة الظافرة او لا يزالون يوفون العدل الله ما بقي عليهم من التكفير عن ذنوبهم المغفورة او عن زلاتهم غير المغفورة قبل دخولهم السماء وهي الكنيسة المتطهرة

فلما قام لوتارس وتبعته على الكنيسة وشقوا عصا الطاعة لرؤسائها لم يروا وجهاً للدفاع عن ضلالهم سوى ان ينكروا كنيسة المسيح المنظورة وما امتاز به نظامها الالهي من الخواص الجوهرية فكان من جملتها شركة القديسين ونفي الروابط التي بين الكنيسة المجاهدة والكنيسة الظافرة وبالتالي نفي شفاعة القديسين. ثم اخذوا يطلبون لتأييد قولهم نصوصاً من الكتاب المقدس اولوها على حسب اهوائهم الباطلة كما سترى

١ شفاعة القديسين في اسفار العهد العتيق

ان هذه القضية قد ثبتت بآيات متعددة لا تدع ريباً لمرتاب وكلها تصرح بقوة شفاعة القديسين الابرار عند الله سواء كانوا في قيد الحياة ام انتقلوا الى رحمته تعالى

١ واول ما يلوح ذلك في سفر التكوين (١٨ : ٢٢ — ٣٢) حيث ورد وقوف ابراهيم الخليل امام الرب ليشفع بسدوم ويكف عنها غضب الله فطلب الى الرب ان يعفو عنها لئلا يهلك البار مع الاثيم فتوسل اليه تعالى ان يصفح عن المدينة ان وُجد فيها خمسون باراً فوعده بالعفو عنها ان وجد فيها هذا العدد من الصديقين. ولم يزل ابرهيم يطلب الرحمة حتى ولو كان الابرار فيها اربعين بل عشرين بل عشرة والرب يعده بالرحمة والعفو الى ان سكت ابراهيم ولم يجسر ان ينزل عن هذا العدد. وبهذا ظهرت قوة شفاعة ابراهيم عند الله وهو لا يزال حياً يُرزق — ولاجل صلاة ابرهيم عافى الله أبيمالك واهله لما ضربهُ لأخذه سارة امرأة ابرهيم ظناً منهُ انها اختهُ (تك ٢٠ : ١٧)

٢ وبعد وفاة ابرهيم نرى ما لهُ من النفوذ عند الله اذ لاجلهِ يبارك ابنهُ اسحاق ويعدهُ بتكثير نسلهِ «من اجل عبدي ابراهيم» (تك ٢٦ : ٢٤)

٣ وكذلك الآباء ابرهيم واسحاق ويعقوب كثيراً ما يلتجئ موسى وبنو اسرائيل الى الله طالبين عونهُ بشفاعتهم. جاء ذلك في سفر الخروج (٣٢ : ١٣) حيث يتضرع موسى الى الله قائلاً: «اذكر ابرهيم واسحاق واسرائيل عبيدك الذين اقسمت

«أترى الله لا ينتقم لمختاريه الذين يصرخون اليه نهارًا وليلًا او يتأنّى في امرهم. اقول لكم انهُ ينتقم لهم سريعاً». ففي كلّ ذلك شواهد ساطعة على مفعول شفاعة القديسين وعلى الكرامة التي ينالونها عند الله

٧ وفي سائر اسفار العهد الجديد اخبار وآيات تثبت الحقيقة ذاتها. ففي سفر الاعمال (١٢: ٥) ان «الكنيسة كانت تصلّي الى الله لاجل بطرس بلا انقطاع». لمّا حبسهُ هيرودس اغريباس عازمًا على قتله فنجا من شرّه بشفاعة الكنيسة — وكذلك القديس بولس في سفره بحرًا الى رومية لكرامتهِ وهبهُ الله انفس السائرين معهُ في زوبعة هائلة حدثت لهم (اعمال ٢٧: ٢٤). فالشفاعة في كل ذلك ظاهرة بكل جلائها فكيف يستطيع البروتستانت انكارها؟

٨ وما قولنا بآيات عديدة في رسائل القديس بولس يذكر فيها صلاتهُ لاجل المؤمنين ويلتمس هو منهم الصلاة كقولهُ في رسالتهِ الى اهل رومية ١: ٩—١٠) «انّ الله ... شاهد لي باني لم ازل اذكركم في صلواتي» وفي رسالتهِ الى اهل افسس (١: ١٦) : «لا ازال ذاكرًا اياكم في صلواتي» ويطلب الصلاة لاجله (رومية ١٥: ٢٠): «اسألكم ايها الاخوة ... ان تجاهدوا معي في الصلوات الى الله من أجلي»

٩ ويصرّح القديس يعقوب في رسالتهِ (٥: ١٦) بقولهِ: «صلّوا بعضكم لاجل بعض لكي تُبرأوا. ما اعظم قوّة صلاة البارّ الفعّالة»

١٠ وأعلمنا القديس يوحنّا الحبيب في سفر الرؤيا (٨: ٣—٥) انهُ «جاء ملاك ووقف عند المذبح ومعهُ مبخرة من ذهب فأعطي بخورًا كثيرًا ليقدّم صلوات القديسين كلّهم على مذبح الذهب الذي امام العرش فصعد دخان البخور من صلوات القديسين من يد الملاك امام الله». فمن لا يرى انّ الله تنعّم بالرضى رائحة ذلك البخور واستجاب صلوات قديسيهِ ورضي بشفاعتهم

٣ شهادات آباء الكنيسة الاوّلين في شفاعة القديسين

١ ورد في رسالة القديس اغناطيوس النوراني تلميذ الرسل الى اهل افسس (ع ٨) : «اني بموتي ساكون ضحيّة تبرير لاجلكم وفداء لاجل كنيسة أفسس». فمن قولهِ يتّضح انهُ يعتبر استشهادهُ تكفيرًا عن آثامهم بما سينالهُ بكرامتهِ عند الله

٢ ونقل اوسابيوس المؤرخ (١: ٣ ف ٣٢) كلاماً للقديس هيجيزبوس اول مؤرخ للكنيسة في القرن الثاني للميلاد ذكر فيه مَن استشهد من اقارب السيد المسيح فقال عنهم: «انهم يتولّون رعية الكنيسة في العالم كلّه بصفة كونهم شهداء واقارب السيد المسيح» وما ذلك الا بما يقدّمون الى الله من الصلوات لاجل الكنيسة كاحبارها ورعاتها

٣ ولنا شاهد في ما كتبهُ القديس ايريناوس اسقف ليون في القرن الثاني للمسيح فانّهُ ذكر في كتابهِ تفنيد الهرطقات (ك ٤ ف ٣١) ما سمعهُ من احد تبعة تلاميذ المسيح الاوّلين «انّ الآباء والانبياء يفرحون في السماء لدى خلاص البشر ويؤدُّون للرب في ذلك الشكر العميم». وقد ذكر في محلّ آخر (ك ٥ ف ١٩) العذراء مريم فدعاها «شفيعة حوّاء»

٤ ولاورنجانس من بعدهِ نصٌّ صريح في شفاعة القديسين فانهُ في كتابهِ المعنون «التحريض على الاستشهاد (ع ٣٠) يصف ما للشهداء من الكرامة عند الله فيقول: «انّ نفوس الذين ماتوا في سبيل المسيح بالاستشهاد تنال للذين يتضرّعون اليهم غفران خطاياهم». وفي ردوده على كلسوس الفيلسوف الوثني (ك ٨ ع ٦٤): «ان نفوس القديسين والملائكة اذا رأونا مستقيمين يرضى الله يساعدوننا في تتميم ما يؤول لمجدهِ ويضيفون صلواتهم الى صلواتنا ويتضرّعون معنا الى الله»

ومثلهُ القديس قبريانوس اسقف قرطجانة الشهير في القرن الثالث للمسيح يقول في احد رسائله الى البابا كورنيليوس (الرسالة ٥٧) «ان خرج احد منّا قبل الآخر من هذا العالم فلا ينسنا بل يذكرنا عند الله ولا تزل صلواتنا هناك تتبع اخوتنا المجاهدين على الارض» ويكرر مثل هذا في آخر كتابهِ عن الموت حيث يقول «انّ اخوتنا الذين سبقونا الى سعادة السماء يهتمون لخلاصنا بشفاعتهم»

اما شواهد الآباء الذين عاشوا في القرن الرابع وبعدهُ فانها لا تكاد تحصى كالقديسين اثناسيوس وباسيليوس ويوحنا فم الذهب وهيلاريوس وايرونيموس حتى اضطرّ كثيرون من البروتستانت الى ان يسلّموا بتعاليمهم في هذا الامر.

٤ الشواهد الطقسية

انّ الكتب الطقسيّة مفعمة بالشواهد التي تدلّ على اعتقاد الكنيسة جمعاء منذ

اقدم الازمنة واقربها الى اوائل النصرانيَّة بشفاعة القديسين. فهذه النوافير وهي صلوات تقدمة الذبيحة الالهيَّة فانَّها كلها دون استثناء تستمدّ شفاعة القديسين وتذكر منهم العذراء مريم والرسل والشهداء والمعترفين والعذارى فتطلب منهم نعماً روحيَّة وجسديَّة للاحياء وتستغيث بهم لاجل الموتى المؤمنين. وهذه الطقوس على اختلاف لغاتها وتباين كتبتها في الشرق والغرب لسان واحد في اثبات هذه الحقيقة. ولو اردنا نقل النصوص المؤذنة في كتب الشرقيين الطقسيَّة بشفاعة القديسين لضاقت عنها بضعة اعداد من المشرق لاسيما ما تشتمل عليه من الادعية الى اولياء الله ليشفعوا بالموتى وينالوا لهم الخلاص من عذاباتهم في المطهر فيتمتَّعوا تماماً بالافراح السرمديَّة. وقد مرَّ لنا في ذلك فصلٌ مطوَّل في مقالتنا عن تذكار الموتى في الكنائس الشرقيَّة (المشرق ٢٠ [١٩٢٢]: ٩٧٨) وفي جميعها ادلَّة لامعة على اعتقاد المؤمنين شفاعة السيدة مريم العذراء وسائر القديسين المقرَّبين من الله بل شفاعة ابناء الكنيسة المجاهدة على الارض. وكلها تُفحم ناكري هذه الحقيقة سواء كانت تلك الكنائس متَّحدة مع الكنيسة الرومانيَّة ام منفصلة عنها

٥ شهادات الآثار القديمة على معتقد شفاعة القديسين

انَّ الكتابات الحجريَّة المرقومة باليونانيَّة او اللاتينيَّة على جدران ديماس رومية الراقية الى قرون الكنيسة الاولى والكتابات الاثريَّة العديدة التي وُجدت في انحاء آسية واوربَّة وافريقية البالغ عددها الالوف أتت ببرهان جديد يثبت صحَّة ايمان الكنيسة الكاثوليكيَّة بشفاعة المؤمنين على الارض ولاسيما القديسين في السماء.

١ فان مدافن الموتى المسيحيين مزدانة كلها بالادعية: «فليرقد فلان بسلام. ارحم يا رب عبدك فلاناً. فليسكن فلان مع الله. فليحيَ مع المسيح. ليعطك الله الراحة الابديَّة». لعمري أكانوا توسَّلوا اليهم لو علموا انَّ أدعيتهم فارغة باطلة؟

٢ وكذلك تزين قبورهم ادعيةٌ الى العذراء مريم والى الشهداء والقديسين فحواها التماس شفاعتهم لاجل المتنيحين في حجر الكنيسة ليفوزوا بالنعيم الابدي. فانَّ قبوراً كثيرة رُقم فوقها «بشفاعة امّ الله او الشهيد الفلاني اغفر يا رب ذنوب فلان المتنيح» وقد ذكر منها كثيراً حضرة القس جرجس اليان السرياني الكاثوليكي في مقالته

المدونة «احوال الآخرة في عرف النصارى الاولين» (المشرق ٢١ [١٩٢٣]: ٨٠٧-٨٠٩). راجع كذلك مقالة حضرة الخوري بولس سليمان المدونة «العقائد المسيحيَّة في الديامس الرومانيَّة» (المشرق ١٥ [١٩١٢]: ٥٧٢-٥٧٣)

٣ وكانوا لتتهم بشفاعة القديسين يطلبون ان تُقبر اجسادهم بقرب ضرائحهم او في الكنائس المقامة لتذكارهم . وهي عادة انتشرت في كل الامكنة حيثما كان مدفن احد القديسين او شاع فيها اكرامهُ . وربَّما كانوا يجعلون في قبر الميت شيئاً من ذخائر الشهيد او القديس كحرزٍ ينال به شفاعتهما

٤ وبين هذه الكتابات ما يشعر بثقة الميت في القديسين ساعة محاسبة النفس عن اعمالها او في يوم الدينونة لحرج ذاك الموقف الرهيب المنوط به خلاصهُ الابديّ . ومنهم من يخصّ بذاك القديس ميخائيل رئيس الملائكة فيطلبون اليه ان يقدّم هو نفس الميت الى ديَّانها لتحصل بشفاعته على نعمة الخلاص

٦ شواهد الشيعة الانكليكانيَّة

انَّ اقطع حجَّة يمكن الكاثوليك ان يقدّموها للبروتستانت في وطننا اذا وجَّهوا سهامهم الى معتقدهم بشفاعة القديسين ان يذكروا لهم الكنيسة الانكليكانيَّة البروتستانيَّة التي تكرم اليوم في معظم كنائس انكلترَّة صور القديسين وتماثيلهم وتقرُّ بشفاعتهم وتستغيث بهم . فكفى بهِ دليلًا على ما يوجد من التناقض في معتقدات البروتستانت فيبارك الواحد منهم ما يلعنهُ الآخر ولا يكاد يجمعهم ايمان واحد بل مجرَّد اسمهم البروتستانيّ

اعتراضات ناكري شفاعة القديسين

استند ناكرو شفاعة القديسين الى بعض آيات الكتاب المقدَّس حرَّفوها عن معناها الاصليّ او لم يدركوا معناها الصحيح

واقوى حجَّة عندهم لتأييد زعمهم انَّ السيِّد المسيح هو الوسيط الوحيد بين الله والبشر (١ تيموتاوس ٢ : ٥) فاستبداد شفاعة غيره ابتخاس من حقوقه . وانَّما هذا غلط وسقطة . فانَّنا لا ننكر ان السيِّد المسيح هو الوسيط الوحيد بين الله والبشر

وهو المخلص الذي افتدانا بدمه وفتح لنا باستحقاقات آلامه وموته باب الملكوت . ولكن هيهات ان يبتخس اكرامنا للقديسين واستشفاعنا بهم شيئاً من حقوق السيد المسيح وذلك لاسباب: ١ لان اكرامنا لابن الله هو اكرام الخليقة لخالقها وفاديها يبلغ اقصى درجات التعبُّد والسجود واما اكرامنا العذراء مريم ولسائر القديسين فهو دونهُ كثيراً يصدر من مخلوقات ذليلة الى خلائق كريمة على الله محبوبة لديه

٢ لاننا باكرامنا للقديسين نكرمهُ تعالى الذي بنعمته بلغ القديسون الى كمال البرارة والقداسة . فيصح فيهم قول الرب (١٠ : ١٦) «من سمع منكم سمع مني ومن احتقركم فقد احتقرني» فيا تُرى أيمكن ان يُقال اننا باكرامنا لاحد اصدقاء الملك نبتخس حقوق الملك أليس هذا الاكرام عائداً الى الملك نفسه ؟

٣ لان الرب نفسهُ ارشدنا الى اكرام قديسيه كما رأيت في الآيات المتقولة آنفاً عن الانجيل . ٤ لانَّ البشر طالما هم على الارض «لا يعلمون احبًّا يستوجبون ام بغضاً» (الجامعة ٩ : ١) أفلا يجدر بهم ان يتقرَّبوا الى ربهم وديَّانهم الرهيب بواسطه اخوتهم الابرار المقيمين في جواره تعالى وهو لا يردُّ لهم طلباً ولاسيما بواسطة امه التي هي اعزُّ مخلوقاته عليه

فترى انَّ هذا الاعتراض لا قوَّة لهُ . وليس اعتراضهم الآخر اقوى حجَّةً حيث يقولون كيف يستطيع القديسون ان يعرفوا ادعيتنا وهم في السماء ونحن على الارض . الجواب على ذلك انَّ القديسين ينظرون كلَّ شيء في الله فبرؤيتهم الله يكشف لهم ايضاً تضرعات البشر ولنا على معرفتهم هذه عدَّة ادلَّة . فانَّ الملائكة الذين ظهروا مراراً للبشر كانوا يأتون ليخبروهم بقبول صلواتهم كالملاك رافائيل في كلامه الى طوبيَّا البار وكالملاك جبرائيل في ظهوره لدانيال ولزكريا فكيف اطَّلعوا على ذلك أليس لان الله كشف لهم الامر؟ وكذا قُل عن جميع القديسين الذين يوقفهم الله على ادعيتنا

هذه اخصُّ اعتراضات البروتستانت فترى انها اوهى من نسيج العنكبوت وان الكنيسة الكاثوليكية احسنت في كلِّ آن ومكان باكرامها القديسين وباستشفاعها بهم وبالتبارك من ذخائرهم كما يكرم الناس كبار الرجال لا بل بنوع اخرى واولى . متَّعنا الله بحمايتهم وشركنا يوماً بمجدهم برحمته ومنه آمين